

حكاية مهاجرات هربن من داعش: لكن رعبهن لم ينته

2016-12-19 وكالات

(رويترز) - ذات صباح معتدل الجو في أكتوبر تشرين الأول قررت منيا مسمير الهرب عندما هداً أزيز المقاتلات الحربية فوق سرت وتوقفت أصوات النيران، فبعد 14 شهراً قضتها المرأة اليربية ذات الثلاثة والثلاثين عاماً مستعبدة في ليبيا كان عليها الفكك من تلك الحياة. لم يعد بمقدورها أن تسمح لآسريها من رجال تنظيم الدولة الإسلامية باغتصابها أو بيعها أو مبادلتها هي أو ابنتها ذات الأربعة عشر ربيعاً.

كانت نتيجة محاولتها السابقة للهروب كسر ساقها. لكنها اعتقدت أنها شفيت بما يكفي للمحاولة من جديد. فبوسعها أن تستند على ابنتها أو أن تعرج حتى تتجاوز حاويات البضائع التي أصبحت تميز حدود الولاية الآخذة في الانكماش لتنظيم الدولة الإسلامية في المدينة المحاصرة، في ذلك الصباح أطلعت مسمير ابنتها وفتاة ايربية أخرى عمرها 16 عاماً على خطتها. كان هناك 22 امرأة أخرى تختبئن في نفس المبنى كلهن مهاجرات اتخذهن التنظيم سبايا. لكن مسمير لم تبلغ الأخريات بشيء خشية أن تجذب ضخامة المجموعة الهاربة الانتباه، وفي نحو التاسعة صباحاً خرجت مسمير والفتاتان من المبنى وقد تذررت أجسادهن النحيلة بعباءات سوداء وغطين وجوههن بالنقاب، كان الآسرون مشغولين فلم ينتبهوا لهن. فقد كان التنظيم يخوض منذ أربعة أشهر معركة شرسة ضد قوات مؤيدة للحكومة الليبية في حرب راح ضحيتها المئات وهي تنتقل من حي إلى حي ومن بيت إلى بيت. وكان الإرهاق قد بدأ ينال من التنظيم، سار ثلاثتهن صوب الخط الأمامي على امتداد سلسلة من الدروب الضيقة وحولهن مبان مهدامة. وعلى بعد ثلاث نواص تعرضن لإطلاق نار واختبأن في بيت مهجور في حالة ترقب، قالت مسمير للبتين "فليقتلونا. هذا أفضل من الحياة التي تركناها وراءنا".

ولم تمت مسمير والفتاتان. لكن حياتهن أخذت منعطفاً جديداً قاسياً. فقد سجنتهن الكتائب الليبية التي استسلمن لها في ذلك اليوم. وبعد أن أمضين أكثر من عام مستعبדות لدى الدولة الإسلامية أصبح الثلاثة متهمات بالانتماء إلى التنظيم.

يسير المهاجرون الأفارقة الفارون من بلادهم طلبا للحرية والسلام والفرصة الجديدة في أوروبا - وهم نحو 175 ألفا خلال العام الحالي وحده - على درب محفوف بالمحن بل والموت المحتمل. ويهلك الآلاف أثناء عبور الصحراء الافريقية. ويغرق أكثر منهم في البحر المتوسط بعد دفع مبالغ طائلة للمهربين الذين يكسبونهم في بطون زوارق متهالكة.

ولا يُعرف الكثير عن الأفارقة الذين يجدون أنفسهم محصورين في ليبيا التي تعد بحكم موقعها والفوضى التي دبت أطناها في جنباتها بوابة لدخول أوروبا من أفريقيا. ويتوقف بقاؤهم على قيد الحياة على نزوات الفصائل المتحاربة.

وكما ورد في تقرير لرويتز في أغسطس آب فقد أسر تنظيم الدولة الإسلامية مسمير وعشرات من النساء الأخريات واستعبدهن. وعشن حياة العبيد أو كعملة بشرية استخدمها التنظيم المتطرف لاجتذاب المقاتلين من الشرق الأوسط وافريقيا.

غير أنه عندما شن جيش شعبي من مدينة مصراته القريبة هجوما على التنظيم في مايو آيار لم يعد لآسري النساء قدرة تذكر على إطعامهن. وبحلول أكتوبر تشرين الأول أصبحن عبئا لا غنيمة ويبدو أن انحسار قيمتهن أتاحت لهن منفذا للهرب.

ومع ذلك فقد أصبحت النسوة وأطفالهن البالغ عددهم 36 فردا أغلبهم من اريتريا يعيشون كابوسا جديدا وأبعد ما يكون عن الحرية. فهن محبوسات في قاعدة جوية عسكرية في مصراته مع زوجات مقاتلي الدولة الإسلامية وأقاربهن.

ويقول العميد محمد جنيدي ضابط المخابرات بكتائب مصراته التي تحتجز النسوة إن الجيش يحقق مع الهاربات. وقد فجرت انتحاريات أنفسهن هذا الشهر بعد أن منحهن مقاتلو مصراته الأمان للمرور.

وقال جنيدي مستخدما اسما شائعا للتنظيم "لابد من التحقيق معهن لأنهن حاربن لفترة مع داعش". ولم يذكر تفاصيل عن التحقيق. وقال إن النسوة محتجزات في مكان آمن ومريح وسيتم ترحيلهن

إذا لم يثبت أن لهن صلات بالارهاب، وأضاف "نحن نعرف أنهن أرغمن على فعل ذلك رغما عن إرادتهن. لكننا نحقق فيما إذا كانت أي منهن لا تزال تعتنق فكر الدولة الإسلامية."

ولم يتسن لرويترز زيارة الهاربات في السجن. غير أن صحفيا استطاع الشهر الماضي التحدث مع 11 منهم ومن بينهن مسمير وابنتها في موقع عسكري في مصراته، وطلبت النساء كلهن باستثناء مسمير وابنتها إخفاء هويتهن لحماية أسرهن. وامتنعت رويترز عن نشر أسماء قاصرات يقطن أنهن تعرضن لإساءات جنسية.

وبدا الهزال على أفراد تلك المجموعة. وقلن إن الطعام الذي يقدم لهن في معظم الأيام قليل. وقالت النسوة إن كتائب مصراته تتوقع منهن دفع ثمن ما يحتجن إليه من سلع أساسية مثل الصابون رغم أن أموالهن صودرت. وكانت واحدة على الأقل من النساء حاملا وتحتاج لرعاية عاجلة. ولم يسمح لهن بالاتصال بعائلاتهن. وزار ممثل للأمم المتحدة النساء الشهر الماضي لاستطلاع حالاتهن. وامتنعت الأمم المتحدة عن التعقيب غير أن بعثتها نشرت في 13 ديسمبر كانون الأول تقريرا قالت فيه إن "وضع المهاجرين في ليبيا يمثل أزمة في حقوق الانسان"، ونفت النساء جميعا أنهن قاتلن باسم تنظيم الدولة الإسلامية أو اقتنعن في يوم من الأيام بفكرها. غير أن حياتهن كانت أفضل في كنف المتطرفين من ناحية واحدة، فقد قالت امرأة عمرها 42 عاما "نعم عندما كنا مع داعش كانوا يرخصون من قيمة حياتنا ويذلوننا. لكن عندما كان الأمر يتعلق باحتياجاتنا الأساسية كانوا يعاملوننا وكأننا أهل".

انفصال

رحلت مسمير عن اريتريا في ديسمبر كانون الأول عام 2010 مع زوجها كفلاي داويت وأولادهما الأربعة، كان الاثنان قد التقيا في المدرسة الإعدادية في أسمرة عاصمة اريتريا وتزوجا قبل أن يتخرجا من المدرسة الثانوية. وعاد داويت للدراسة بعد ولادة بنتهما الأولى وعمل فيما بعد بأحد البنوك المملوكة للحكومة في المدينة. أما مسمير فبقيت في البيت لرعاية الأسرة، وافتتح الزوجان متجرًا صغيرًا في الحي الذي كانا يعيشان فيه. وتألقت ابنتهما الكبرى في المدرسة. وبعد أن سجنّت الشرطة الاريترية داويت مرتين لإبداء آرائه بصراحة في اجتماعات نقابية قرر الاثنان مغادرة البلاد.

وسارت الأسرة أياما وعبرت حدود اريتريا الغربية. واستقر بها المقام في مخيم شجارب للاجئين في السودان. ولمدة عامين عاشت الأسرة على الهبات من وكالة الأمم المتحدة للاجئين ودخلها من مقهى أقامه داويت على أطراف المخيم الواسع.

وذاث صباح في ديسمبر كانون الأول عام 2012 استيقظت مسمير لتجد أن زوجها رحل. فقد دفع داويت مالا للمهربين لنقله إلى جزيرة لامبيدوسا الايطالية الصغيرة في البحر المتوسط بسبب ما اصابه من إحباط من الحياة في مخيم اللاجئين. لم يخطر زوجته بما انتواه. ولم يودع أطفاله، وفي الشهر الماضي قال داويت الذي انتهى به المطاف في بريطانيا لرويترز "لم يكن أمامي خيار. تركت أولادي خلفي في الصحراء. لكن كل ما أردته في كل يوم وكل ليلة أن تكون حياتهم أفضل من حياتي."

وبعد عامين انطلقت مسمير في رحلة إلى أوروبا بفضل 40 ألف جنيه سوداني (6172 دولارا) ادخرتها من بيع الشاي والقهوة لتدفع للمهربين ثمن الرحلة، وفي يوليو تموز 2015 سافرت عبر الصحراء مع أولادها الأربعة وقافلة مكونة من حوالي 100 مهاجر. وفي أجاديا في شمال شرق ليبيا حيث توقف المهاجرون لدفع المال للمهربين للمرور عبر البلاد استعدت المجموعة للرحلة بالشاحنات إلى العاصمة طرابلس.

لكن في ليلة رحيلها اكتشفت مسمير عندما استقرت في صندوق الشاحنة اختفاء ابنتها الكبرى، كان مهرب ليبيا قد احتجز الفتاة وطالب بمبلغ إضافي، وتوسلت إليه مسمير أن يطلق سراح ابنتها. وعندما أخرج مسدسا وهددها انطلقت الشاحنة بأولادها الثلاثة الأصغر، وسوت مسمير خلفها مع المهرب لكنها اضطرت للانتظار أسبوعين قبل أن تركب هي وابنتها شاحنة جديدة متجهة إلى طرابلس.

سافرت الشاحنة التي كانت مكتظة بما إجماليه 72 مهاجرا بامتداد الطريق السريع صوب العاصمة على مدى أربع ساعات قبل أن يوقفها مقاتلو الدولة الإسلامية. وفصل المقاتلون الرجال عن النساء ثم أخذوهم إلى مجمع في بلدة هراوة الصغيرة في وسط ليبيا، وعلى مدار الأشهر القليلة التالية وبينما أسست الدولة الإسلامية خلافتها في ليبيا أجبر مقاتلوها النساء الأسيرات على اعتناق الإسلام

وباعوهن واحدة بواحدة كإماء.

أنا المالك

في يناير كانون الثاني قامت مسمير وابنتها بأولى محاولتهما للفرار. وتمكنتا مع 14 امرأة أخرى من الهروب من مجمع هراوة. لكن تم الإمساك بهن بعد بضعة أيام وعدن إلى السجن، وفي فبراير شباط اشترى مقاتل سعودي في منتصف العمر يدعى أبو بكر مسمير وابنتها. كان قائد عسكري من الدولة الإسلامية قد وعد مسمير بألا تباع ابنتها لمالك مختلف. لكن أبو بكر تجاهل ذلك، وقالت مسمير "قال لي 'أنا المالك. سأبيع ابنتك ولا يستطيع أي قائد أن يبلغني بما ينبغي أن أفعلت لواح،'" مسمير الفرار مجددا. وصنعت حبلا من أحجبة وفي ساعات الصباح الباكر ساعدت ابنتها على القفز من نافذة في الطابق الثالث. لكن الحبل قُطع وسقطت ابنتها وبدأت تنزف. وقفزت مسمير إلى الشارع في الأسفل وكسرت ساقاها.

وبعد تلك الواقعة ما كان من أبو بكر إلا أن نقل إماءه إلى الطابق الأرضي كي لا يقفزن مجددا. وبعد شهر باع ابنة مسمير إلى مقاتل سوداني اسمه أبو طلحة، وعلى مدار أسبوعين اغتصب أبو طلحة الفتاة البالغة من العمر 14 عاما في الغرفة المقابلة لغرفة والدتها، وقالت مسمير "سمعت كل شيء فعله بابنتي. سمعت تبكي في غرفتها وبكيت في غرفتي. لم أتصور مطلقا أن ابنتي ستمر بشيء من هذا القبيل. لكنه قدر الله".

عرض أبو طلحة أن يتزوج ابنة مسمير. وعندما رفضت باعها لمقاتل سوداني آخر يدعى منصور اغتصبها هو الآخر، وضاعف من لوعة وعذاب مسمير عدم معرفتها ما إذا كان أطفالها الآخرون قد بقوا على قيد الحياة خلال رحلتهم في ليبيا أو شقوا طريقهم إلى أوروبا، وقالت مسمير "لم أستطع حتى أن أتذكر كيف تبدو وجوه أطفالتي. كنت سأراهم في أحلامي في الليل وسأكون سعيدة. لكنني سأصحو وسأظل مع داعش"، ولم يتسن لرويترز تحديد موقع مقاتلي الدولة الإسلامية الثلاثة أو التأكد على نحو مستقل من أجزاء من رواية مسمير.

حربان

في مطلع مايو أيار وبعد أن تشجعت الدولة الإسلامية من بنائها مشروع دولة في سرت غامرت بالتقدم غربا وهاجمت نقاط تفتيش على امتداد قطاع طوله 250 كيلومترا إلى مصراته ثالث أكبر مدن ليبيا.

وكان رد أهل مصراتة سريعا. فشبان المدينة الذين أكسبتهم الحرب قوة وصلابة انضموا إلى الكتائب جماعات. وجمعت الكتائب التي تساندها حكومة نصبتها الأمم المتحدة في طرابلس أسلحتها - بنادق روسية قديمة ودبابات تي-55 وأسلحة أخرى من حقبة معمر القذافي - ونقلوا المعركة إلى مناطق الدولة الإسلامية.

لكن حماس المصراتيين قابلته صلابة وتمرس القناصة المهرة والمفجرين الانتحاريين بالتنظيم المتشدد. وقفز عدد القتلى في الجانبين.

ثم بدأت الطائرات الأمريكية المقاتلة قصف سرت في أغسطس آب، وقبل الغارات الجوية عاشت النساء الأسيرات في مبان منفصلة في مجموعات تضم كل منها ثلاثة أو أربعة. لكن بعدما هجر المدنيون المدينة واشتد القصف جمع مقاتلو الدولة الإسلامية الإماء ووضعوهن في دار للضيافة. ووضعوا زوجاتهم في نفس المبنى كي يتمكن من مراقبة الإماء.

وقالت الأسيرات إن زوجات المقاتلين ارتدين أحزمة ناسفة وهددن بتفجيرها. وسخرت الزوجات من الأسيرات وهددنهن، وعندما يلقي مالك أمة حتفه في القتال يحل مقاتل آخر محله خلال أسبوع. وقال بعض النساء إنه أعيد بيعهن حتى أربع مرات خلال الصيف. وأصبح دار الضيافة في جوهر الأمر ماخورا.

وقالت تيجستي فيساهاي وهي أسيرة عمرها 24 عاما "شعرت أننا في حربين - واحدة مع القنابل والنيران الآتية والأخرى مع رجال داعش وانتهاكاتهم. توقع الرجال أن نموت معهم"، وفي نهاية المطاف فصل المقاتلون مجموعتي النساء. أخذوا الإماء إلى مبنى في منطقة سكنية تدعى رقم ثلاثة وهي من آخر معاقل الدولة الإسلامية في سرت. ويقوم كل مقاتل بزيارة المبنى أثناء الليل ويأخذ أمته معه ثم يغتصبها في مبان على طول خط القتال ويعيدها في الصباح.

الفرار

بحلول أغسطس آب كانت ولاية تنظيم الدولة الإسلامية في سرت قد تقلصت إلى بضعة تجمعات سكنية في المدينة. تقلصت الموارد وعانت النساء من الجوع. كان الخاطفون يطعمونهن المعكرونة مرتين في اليوم لكن الكميات كانت تقل باستمرار. وفي بعض الأيام كانت النساء تبحثن عن الطعام في المباني المنهارة. وتحولت جولات البحث عن فضلات الطعام هذه إلى مهمات استطلاعية.

وعندما لم يتبق لدى مقاتلي التنظيم سوى بضعة مبان يسيطرون عليها حفروا الخنادق للاختباء من الضربات الجوية. ونقلوا الأسيرات إلى مبنى أقرب للشاطئ. ولأن الطائرات كانت تقصف أي مركبة تتحرك تعين على النساء السير على الأقدام إلى سجنهن الجديد. حاولت مسمير السير لتختبر قواها لكن قدميها لم تحملها. فطلبت من ابنتها العودة لإحضار كرسي متحرك كانت تستخدمه منذ فبراير شباط.

ولم تكذ الفتاة تتجاوز المبنى حتى هدمت طائرة مقاتلة البناية التي أقامت بها النساء لنحو شهر. وقتل في الانفجار ثلاثة من قناصة التنظيم كانوا يتمركزون داخل المبنى بعدما ساعدوا ابنة مسمير على حمل الكرسي المتحرك إلى الخارج.

وبعد أكثر قليلا من شهر وفي صباح أول يوم أربعاء من شهر أكتوبر تشرين الأول قررت مسمير الهرب مرة أخرى، وقالت "في النهاية اعتقدت أن الموت أثناء محاولة الهرب أفضل من الموت مسحوقة تحت مبنى ينهار".

ارتدت مسمير وابنتها والفتاة ذات الستة عشر عاما سراويل الجينز وقمصانا تحت عباءاتهن السوداء الطويلة. اجتزن المباني التي يسيطر عليها التنظيم ثم عبرن جبهة القتال محتميات بالجدران قدر استطاعتهن. وكانت مسمير تعرج وتتألم من أثر كسور ساقها. وعندما سمعن طلقات نار اختبأن داخل مبنى قرب مسجد مهجور.

وفي الساعة العاشرة صباحا سمعت النساء أصوات مقاتلين من إحدى كتائب مصراة يحثونهن على

الخروج من المخبأ، وفي تسجيل فيديو صوره أحد المقاتلين سمع صوت رجل يهتف "أنتن في أمان" وأقسم بالله أنهن في أمان، وصور الفيديو خروج الفتاة ذات الستة عشر عاما أولا رافعة يديها في الهواء وبعد بضع دقائق خرجت مسمير وابنتها. ومع اقترابهن طلب منهن المقاتلون التوقف وكشف ملابسهن للتحقق من أنهن لا يرتدين أحزمة ناسفة. ولم تع النساء التعليمات وواصلن الاقتراب من المقاتلين.

ومرت مسمير بلحظة رعب اعتقدت خلالها أنهم سيطلقون النار عليهن إلى أن رأت أحدهم يشعل سيجارة وهذا أمر يحظره تنظيم الدولة الإسلامية، وبعد أسبوع قفزت ثماني نساء أخريات من نافذة المطبخ وسرن طلبا للحرية. كن قد حبسن بعد فرار مسمير والفتاتين لكنهن قررن الهرب عندما أخبرهن مقاتلو التنظيم أنهن على وشك أن ينقلن من جديد.

واتبعت النساء نفس المسار الذي سلكته مسمير. وقبضت عليهن كتيبة أخرى، وقال مصطفى شيباني (30 عاما) قائد الكتيبة التي تلتتهن "في بادئ الأمر كن يشعرن بالخوف لكن بعد أن أدركن أنهن في أمان خلعن الحجاب وقلن 'أصبحنا أحرارا مرة أخرى"، طلبت النساء طعاما وماء. وقدمت الكتيبة لهن الفطائر والماء وشطائر اللحم المفروم، وبحلول نهاية أكتوبر تشرين الأول فرت 14 امرأة أخريات منهن اثنتان من إثيوبيا وثلاث نيجيريات. وبعدهن هربت سبع مسعفات فلبينيات، ويوجد حاليا نحو 70 امرأة في القاعدة الجوية العسكرية التي تبقي فيها كتائب مصراة السجينات. وتقول اللاجئات الإريتريات إنهن يتركن في غرف مع زوجات مقاتلي تنظيم الدولة الإسلامية ومقاتلات من التنظيم كن قد ساعدن في بيعهن كإماء أثناء احتجاز التنظيم لهن. واندلع شجار بين النساء، وقالت مسمير "كانت تلك النساء يبعنا ويبادلنا والآن بعد أن أصبحن هنا ... يصفوننا بالقذرات والعاهرات"، ولم تحدد الكتائب بعد عدد الأسيرات من تنظيم الدولة الإسلامية وعدد من جئن إلى سرت بمفردهن من بين هؤلاء النساء.

ما يحطم معنويات النساء هو أن محتجزيهن الجدد لا يفرقن بينهن وبين المتعاطفات مع التنظيم المتشدد، وقالت مسمير البالغة من العمر 42 عاما "يقولون إننا من داعش. لسنا من داعش... كنا أسيرات. عانينا على يد داعش. نريد حريتنا لكننا لم نجدنا بعد"، ومنذ أن بدأ أسر كتائب مصراة لمسمير وابنتها البالغة من العمر 14 عاما توصلت رويترز إلى ما جرى لأطفالها الأصغر سنا.

فقد نجح الأطفال الثلاثة وأعمارهم 13 عاما وعشرة وثمانية أعوام في عبور البحر المتوسط سالمين ووصلوا إلى ألمانيا حيث يعيشون مع جهة راعية حددتها لهم الحكومة. وفي مصراته الشهر الماضي أطلع مراسل مسمير على هذا النبا وأراها صورا حديثة لهم، ظلت مسمير صامتة للحظة. ثم دفنت رأسها في حجرها وانفجرت في نوبة بكاء، قالت بين نوبات النحيب "أبنائي... لم أكن أعلم ما إذ كانوا مازالوا على قيد الحياة أم غرقوا في البحر.. الحمد لله".